# حلقة الوصل بين الألسنية الحديثة والنحو العربي

د. خليل عمايرة

.... وحدّ اللغة مجموعة من الأصوات التي تآلفت تآلفا اعتباطياً عشوائياً ،[1] فكونت مجموعة من المباني الصرفية التي أصبحت الدوال لمدلولات تستدعيها ، وتقتضي صورتها اقتضاءً اجتماعياً عرفياً ، بعد أن كانت مع مدلولها ، كسابقتها ، في علاقة اعتباطية عشوائية ، فالكلمات : رجل وفرس وحائط ( وهي أمثلة تعريف الاسم عند سيبويه )[2] تستدعي كلّ واحدة منها صورة معينة طبقا لموروث دلالي اجتماعي ، أخذ بُعدا عرفيا قسريا ، يُعاقَبُ من يخرج عليه ، بالإعراض عنه وعدم إجابته ، أو بنقده ومهاجمته ، ثم تستخدم المباني الصرفية في تراكيب لغوية ، يؤدي كلّ تركيب معنى معينا ، يحمل في مجمله فكرة المتكلم عن العلاقة الذهنية بين صور جزئيات التركيب ، أو يطلب من السامع توضيحا لهذه العلاقة ، أو يكلفه مشاركة القيام بها أو بشيءٍ منها .

تنتظم المباني الصرفية في التركيب اللغوي في لغةٍ ما ، طبقا لكيفية اجتماعية ذات قواعد وقوانين ، وصفية في بدايتها ، معيارية في نهايتها ، عشوائية في نشأتها على ألسنة المتحدثين بتلك اللغة ، مرنة الاستعمال في توالي العصور ، متأثرة بما يكون في المجموعة التي تتحدث بها من عوامل التأثير ، تراكيبها قابلة للزيادة أو الحذف ، أو إعادة ترتيب مبانيها ، ليتمكن المتكلم من نقل إحساسه الحقيقي بالعلاقة الذهنية بين الصور التي يتألف منها التركيب ( بكلمات منطوقة أو مكتوبة ) فتجسّد العلاقة الذهنية وتكون دليلا يقود إليها ، أي إلى ما يسمى بالمعنى الدلالي .[3]

**على الرغم من أن مصطلح « المعنى الدلالي » من أكثر المصطلحات غموضا واتساعا في الدراسات اللغوية والأدبية والنقدية ، مع كثرة استعماله كثرة تكاد تزيد على استعمال أي مصطلح آخر فيها ، إلا أننا سنحاول هنا أن نجعله المحور الرئيسي لحديثنا عن بؤرة محاولات المدارس اللغوية المعاصرة في تحليل النصوص ، ونجعله كذلك في حديثنا عن المنهج الذي سار عليه نحاة العربية القدماء ، ونجعل له كذلك الموقع نفسه في محاولة الربط بين ما توصل إليه السّلف الصالح من نحاة العربية ومعطيات الدراسات اللغوية الحديثة .**

**إن الحديث عن المعنى الدلالي ليس بالأمر اليسير ، وإن حصر المدارس التي تحدثت عنه واختطت كلّ لنفسها منهجها الذي ترتضيه وتباهي غيرها به ، بل تعلن بأنه الأكمل في تحليل المنظومة اللغوية في النصوص ، والوصول إلى المعنى الدلالي ، إن حصر هذه المدارس والحديث عن مناهجها يحتاج إلى جهود مجموعات من الباحثين ، فضلاً على أن نتحدث عنه في مقالة قصيرة ، ولكننا سنعمل على عرض سريع لأهم ما جاءت به أهمّ هذه المدارس ، لنرى أين تقع دراساتنا اللغوية في هذه السّلسلة المتصلة من المعرفة الإنسانية التي أخذت المخترعات الحديثة ، وما توصل إليه الإنسان من وسائل الاتصال تلّح ، بل تحتّم الاطلاع لأخذ السمين وترك الغث .**

يرى كثير من الباحثين المعاصرين أن رأس الدَّرْس اللغوي المعاصر في الغرب ، هو العالم السويسري ، دي سوسير (١٨٥٧ ـ ١٩١٣) بعد أن نشر طلابُه كتابَه « محاضرات في علم اللغة العام » بعد وفاته بثلاث سنوات ، فترك هذا العالم بما جاء في كتابه من أفكار ، أثره في العلماء الذين جاءوا بعده إلى يومنا هذا ، بوجه كلّ منهم عبارة سوسير زاعماً أنه أدق من غيره ، وأقرب إلى فهم كنه ما أراده الرائد . ولعلّ من المفيد أن نكتفي من اللغويين الذين تأثروا بدي سوسير بأصحاب المدارس التي بحثت في المعنى مكونة مدارس نحوية لغوية ، أو كانت معالم المدرسة النحوية ماثلة في ما يذهبون إليه . ونرى أنّ من المفيد حقا أن نذكر عددا من أهم النقاط التي جاءت في محاضرات سوسير مما بنى عليه العلماء من بعده .

فرّق سوسير بين الكلام واللغة «(٤٠) فاللغة هي مخزون جمعي من اتفاقات التواصل الضرورية لأفراد أمة معينة ، مخزون كامل في أذهانهم بالقوة ، يستعمله الفرد الواحد في ما يسمى بالكلام استخداما ناقصا ، يعبّر به عمّا في ذهنه طبقا لملكته وقدرته على

استخدام هذه الملكة سيكولوجيا وفيزيولوجيا ، ولعل ممّا يتصل بهذه النقطة بسبب ، أن سوسير يرى – كما يرى غيره – أن اللغة المنطوقة هي الأصل ، جاءت المكتوبة لتجسده ، ورموزا له ، فنشأ بذلك بند آخر من بنود أفكار سوسير ، وهو العلاقة بين الدّال والمدلول ،(٥) المدلول الذي هو التصور الذهني والدّال الذي هو الصورة السمعية التي قد تأتي مكتوبة في هيكل لا يزيد على كونه رمزاً مجسداً للصورة الصوتية السمعية ، والارتباط بين الدّال والمدلول ارتباط ذهني سيكولوجي اتحدت أصواته ( كما يرى عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز )(٦) اتحادا عشوائيا اعتباطيا ، ثمّ ارتبط بمدلوله بالرابطة نفسها ، حتى إننا لنقول : بأنّ القائل الأول لكلمة ( ضرب ) لو كان قد قالها ( ربض ) لما كان في ذلك ضير أو فساد ،(٧) ولكنها بعد أن تتحد بمدلولها تأخذ بُعدا اجتماعيا قسريا ، ليس من اليسير أنْ يتغير .

ومن أبرز النقاط التي قال بها سوسير أيضا فكرة العمل الأفقي والعمودي للنظام اللغوي في الجملة(٨) ، ويعتمد على العمل الأفقي في إبراز الترابط بين مركبات الجملة من فعل وفاعل ومفعول ، أو من مبتدأ وخبر في نسق يتسق مع ما عليه قواعد اللغة ، موضوع الدرس .

ويعتمد على العمل العمودي في الكشف عن المعنى بإبراز العناصر التي يمكن أنْ يتم تبادلها مع كلّ كلمة من كلمات الجملة تبادلا عموديا ، فيعمل الاثنان ( الأفقي والعمودي ) معا لمساعدة المتكلم في الوصول إلى ما يريد ، والسامع لفهم ما يسمع في علاقات استبدالية أو تركيبية .

ولدراسة اللغة في ما يظهر بوضوح عند سوسير منهجان :(٩) أحدهما وهو المسمى التزامني Synchronic تتم به دراسة اللغة دراسة وصفية : ما هي عليه ، أو ما كانت عليه في فترة محددة من تاريخها ، استنادا إلى الملاحظات التي تتم على البنية أو المنظومة اللغوية في تلك الفترة المحددة . والثاني : وهو المنهج المسمى التزمني Diachronic ، فتتم به دراسة اللغة من حيث تطورها دراسة مقارنة : لهجة بلهجة ، أو لغة بلغة ، ولغة أو لهجة في فترة معينة ، معها أو في فترة سابقة عليها أو لاحقة بها . وقد أصبح المنهج الأول ( التزامني ) هو المنهج الذي يرتضيه أصحاب المدرسة البنيوية ، في حين أخذ أصحاب المدرسة التاريخية بالمنهج الثاني .

ذكرنا سابقا بأننا سنكتفي بعرض سريع لأهم المدارس اللغوية ذات الأثر في

الدرس النحوي، فنعرض بإيجاز رأي أصحاب النحو البنيوي، ثم رأي أصحاب النظرية التوليدية التحويلية.

المنهج البنيـوي:

ليس من اليسير حصر المصطلح « البنيوية » والحديث عنها من خلال رجل واحد أو مدرسة واحدة، ولكن من اليسير أن نقول بأنّ البنيوية قامت كرّدة فعل للمناهج القديمة، وتعدّ ثورة على التمسك بها تمسكا لا يميز الجيد والرديء، فظهرت هذه الثورة بعد بلومفيد في المدرستين التاليتين: التوزيعية والوظيفية ( وهناك عدد من المدارس ولكنني آثرت أن أكتفي بهاتين المدرستين ).

أ ـ التوزيعيـة:

على الرغم من أن التوزيعية منذ زمن بلومفيد إلى زمن هاريس قد ظهر فيها عدد من العلماء البارزين، مثل: بلوك B. Bloch وهوكيت Hockett وتراغر G. Trager وغيرهم، إلاّ أن الفضل في ظهورها مذهباً ألسنياً له معالمه، يرجع إلى العالم الأمريكي الروسي الأصل، زيلغ هاريس (١٩٠٩ ــ      ) الذي يعدّ بكتابه « مناهج في الألسنية البنائية ١٩٥١ » واضع هذه النظرية مع أنّه كان في كتابه هذا يطبق شيئا من أفكار بلومفيد بمنهج خاص وطريقة رياضية عسيرة التتبع، معتمدا على أفكار الرائد الأول دي سوسير في تطبيقه، فيعتمد في نظريته اللغة وليس الكلام ميداناً للدراسة، فيدرسها دراسة تزامنية، وليست تزمنية، وهذه من أبرز ما أشار إليه سوسير، ثم يقوم بتقسيم النص إلى مكوناته الصرفية الرئيسة ( المورفيمات )، ليصل إلى تحديد العلاقات الداخلية بينها، أي إلى العلاقات الداخلية بين المباني التي قامت ببناء النّص أو المنظومة اللغوية لتحديد توزيع العناصر المكوّنة لها في سياق التشكل النصي كاملا، وهذه العناصر تنساق في تراكيبها انسياقا قسريا يخضع لعدد من القوانين Restrictions التي تتمّ في ضوئها عملية التصنيف النّحوي في أبواب[١٠] وهذا يذكرنا بعمل النحاة العرب القدماء تماماً في إلحاق كلّ مكّون صرفي في الجملة بباب نحوي، مثل باب كان وأخواتها، وإن وأخواتها، والأدوات العاملة عمل ليس .... الخ.

إنّ تحليل النّص فيما يراه أصحاب هذه المدرسة إلى ما فيه من مستويات تركيبية: صوتي وصرفي وتركيبي جملي، يقتضي بأن ينظر إليها من حيث نهاية ما وصلت إليه، أي إلى التركيبي الدلالي، ليصل المحلّل في النهاية إلى القول بأنّ التركيب ( س )، بتوزيع

مبانيه ، يساوي أو لا يساوي التركيب ( ص ) . وقد دفع هذا الأمر إلى النظر في مكونات الجملة ، فهي عندهم محدَّد واسم ، ترتبط المحددات بالأسماء في التركيب لتحديد فئتها أو مكانها أو زمانها أو صفاتها ... الخ ، ويقوم بهذا الترابط عدد من الحروف والأدوات ، أو ما يسدّ مسدها ، وربما كان المنهج في التحليل اللغوي يبدو بشكل بارز في فرع من فروع التوزيعية وليس فيها كلّها فقد برز في ما يسمى بمنهج « المكونات المباشرة » Immediat Consttuants[11] .

يقوم المحلّل في المنهج التوزيعي بِرّد النص الذي يجمعه عينة من عدد من المتكلمين المتجانسين في فترة محددة زماناً ومكاناً – برده إلى مستوياته الصوتية والصرفية والتركيبية ، فيجمع المتبادلات المتاثلة شكلا من غير اهتام كبير بالمعنى ، في مكان واحد ، ثم يقوم بتصنيف القواعد التي تحكم التوزيع الشكلي في الصوت والصرف والتركيب »[12] وهذا يذكرنا بمنهج نحاة العربية في تصنيف أبواب النحو في ضوء نظرية العامل : إلى مرفوعات ومنصوبات ومجرورات ومجزومات وتوابع »[13] وإنّ نظرة سريعة إلى باب كان وأخواتها ، أو إنّ وأخواتها ، أو أفعال المقاربة ، أو الحروف العاملة عمل ليس أو عمل إنّ ، أو حروف الجر ، ستبين أنّ النحاة العرب القدماء قد اعتمدوا الشكل في المتبادلات المتاثلة تأثيراً ليجمعوها في باب واحد لا مسوّغ لجمع جزئياته لو استُثْنِيَ هذا العنصرُ .

ب – الوظيفيّـة :

ربما كان العالم الدنماركي هلمسليف – صاحب النظرية الكلوسيماتيكية Glossematic – وهي النظرية الخاصة بالوظيفة الإيجابية للكلام أول من أبرز مفهوم الوظيفة والوظيفية ، إحياء لما جاء في محاضرات دي سوسير ، ولكّن الذي تصدّر لها وجعلها نظرية ذات معالم في التحليل اللغوي هو العالم الفرنسي مارتينيه .[14]

تتكون الجملة موضوع التحليل ، أو العيّنة اللغوية من مجموعة من المكونات الصغرى ، فمثلا الجملة :

أكرم رئيس النادي ضيوفه مساء يوم الأحد .

مكونة من : أكرم + رئيس النادي + ضيوفه + مساء يوم الأحد .

وكلُّ من هذه مكوّنة من مجموعة من المكوّنات .

**أكرم + ( رئيس + ال + نادى ) + ( ضيوف + ـه ) + ( مساء + يوم + الأحد )**

وكلّ من هذه مكوّنة أيضا من مجموعة من المكّونات الصغرى من عناصر الصوت ( الفونيمات ) وعناصر الصياغة ( المورفيمات ) الملتصقة لتكوّن لكسيمات عناصر معجمية أو مونيمات مشتقات لكل منها وظيفته في النص موضوع التحليل وتكون دراسة هذه المكونات من جانبين : فونتكس ( صوتي ) Phonetics وسينتاكس ( تركيبي – نظمي – جملي ) Syntax يتضمنان دراسة الأصوات والمباني الصرفية ووظائفها في الجملة من غير انصراف إلى المباني الصرفية دراسة معجمية ( أي من حيث هي جذور معجمية لكلمات تتفرع عنها ) ، أو دراسة اشتقاق صرفي ، ذلك لأن مارتينيه يهتم باللغة اهتماما يقابل وظيفتها الكليّة ، أي أنها تقوم ببنيتها الكليّة بوظيفة نقل المعلومات بين المتكلمين بها ، وليس بجزئياتها : مفردات أو أصوات ، ومن هنا فإنّه يدرس الجزءَ الصرفي المورف في المونيم المشتق من حيث وظيفته ، كدراسة علامة التأنيث في الاسم المؤنث في اللغة العربية مثلا ، أو علامة الجمع في جمع المذكر السالم أو المؤنث السالم ، أو في الأفعال الخمسة .... الخ .

درس مارتينيه[١٥] الجملة تركيبيا ووظيفيا اعتمادا على فهمه دور كلّ من المسند والمسند إليه ، فالمسند إليه هو صاحب الوظيفة الرئيسة في التركيب الجملي . والعلاقة بينه وبين المسند علاقة كليّة ، وكلُّ ما جاء في الجملة زيادة على ركنيها الرئيسيين فهو من قبيل التوسع فيها . ولعلّ في هذا ما يذكرنا بما عند نحاة العربية من اعتمادهم المسند إليه والمسند أصولا في الجملة ،[١٦] وما زاد على الأصول فيها ففضلات أو تتمات ، ويذّكرنا كذلك بأن النحاة قد اعتمدوا المسند إليه بمثابة بؤرة الجملة .

بالإضافة إلى هاتين المدرستين[١٧] فقد كانت هنا مدارس أخر ، وكان هناك أفراد آخرون ، يمثل كلّ منهم – بالمعالم التي وضعها – منهج تحليل لغوي ، وكأنه مدرسة قائمة بذاتها ، مع أنّه يسير في إطار كبير يسمى البنيوية ، فقد كانت هناك حلقة براغ التي أسسها ماثيسيوس سنة ١٩٢٦ م واستقطب لها تروبتسكوي وورومان جاكبسون ، وهما من ألمع لغويي هذا العصر ، فاصطبغت الحلقة بصبغة البحث المشترك في عدد من النقاط الرئيسة في منهج دي سوسير من أبرزها الرمزية اللغوية والأخذ بالمنهج التزامني في التحليل ، بالإضافة إلى الصبغة العلمية الجادة التي أضفياها على دراسة الأصوات من حيث ما يسمى الدلالة الصوتية والأصوات Phonetics and Phonology ، وربما كان جاكبسون أبرز عالم حتى يومنا هذا يلفت الانتباه إلى دراسة الأصوات من حيث

التنغيم والنبر بالإضافة إلى عملية دراسة الأصوات الصامتة والصائتة كما هو معروف في الدراسات التقليدية[١٨] .

**المدرسة التوليدية التحويلية :**

ذكرنا سابقاً أنّ بلومفيلد قد ترك أثره الواضح في الدراسات اللغوية في هذا العصر ، وكذلك في اللغويين الذين جاءوا بعده ، فكان هاريس من بين أبرز من تأثروا به في جعل التوزيعية مذهبا له أبعاده في التحليل اللغوي ، وقد كانت الصلة بين هاريس وتشومسكي الذي جاء بالنظرية التوليدية التحويلية صلة صداقة حميمة ، بعد أن قضى هذا ( تشومسكي ) مرحلة طلب العلم على يدي أستاذه هاريس ، فتمكن التلميذ من الاطلاع من قرب على ما نُشر وما لم ينشر من أعمال أستاذه وأفكاره ، فأدرك الثغرات التي كانت في التوزيعية بخاصة وفي البنيوية بعامة ، وهو العالم البنيوي إلى سنة ١٩٥٧ م حيث نشر كتابه الذي يعد النواة الأولى للنظرية التوليدية التحويلية وبداية الطريق للتحول عن البنيوية .

تقوم نظريته على عدد من الأسس الرئيسة ، من أبرزها :[١٩]

١ ـ الفطرية اللغوية ، وقد كان تشومسكي متأثرا في هذه النقطة بما كان في فلسفة الفيلسوف العقلي ديكارت ، وهمبولت من بعده ، ونحن نعلم أنّ تشومسكي كان معجبا بديكارت وبفلسفته إلى الحدّ الذي اندفع معه لوضع كتاب في الفلسفة الديكارتية .

يرى تشومسكي أنّ الطفل يولد مزوداً بعدد من القوالب الذهنية ، يكون فيها الاستعداد الفطري لمختلف اللغات ، فتُملأ هذه القوالب من واقع الاكتساب البيئي في الوسط اللغوي الذي يعيش فيه الإنسان .

٢ + ٣ ـ الكفاية والأداء ، تمثل الكفايةُ المخزونَ المعرفيّ في ذهن الإنسان من القواعد والقوانين اللغوية الكامنة ، يكتسبها الفرد في حياته ، فتأخذ في التموّ معه منذ الفترة الأولى في حياته ، فتمكّنه من إنتاج الجمل الصحيحة والقواعدية ، وتمكّنه كذلك من الحكم على ما يسمع بالصحة أو الخطأ طبقا لهذا المخزون .

ويمثّل الأداءُ استعمالَ الفرد المتكلم هذه القوانين في ما ينطق به أو يكتبه ، أي أنّه عملية توظيف هذه القواعد ، أو توظيف الكفاية ، في استعمال الفرد . وبذكرنا هذا

بما جاء في محاضرات سوسير من التفريق بين الكلام واللغة .

٤ + ٥ ـ البنية العميقة والبنية السطحية : تعود البنية العميقة إلى الفكرة الذهنية المجرّدة في عقل الإنسان ، تلك التي يود المتكلم التعبير عنها ، وأما البنية السطحية فإنها تجسيد هذه الفكرة الذهنية في كلمات منطوقة يتم بها تحويل الفكرة من مرحلة إلى مرحلة ، فتنطق متفقة مع قوانين اللغة وقواعدها من حيث المبنى ، وأما المعنى فيبقى مع البنية العميقة بصلة هي صلة الشيءْ المجسَّد أصله بالمفترض .

٦ + ٧ ـ قواعد النحو التوليدي وقواعد النحو التحويلي :

يبدو أنّ في هذين المصطلحين يكمن جلّ الفرق بين منهج تشومسكي في نظريته التوليدية التحويلية ومناهج المدارس البنيوية السابقة عليه أو المعاصرة له فهو لا يكتفي بوصف اللغة كما هي ، فيعمد إلى ما يمكن أن يسمي بالمعيارية أو التقعيد ، ويبحث في طريقه عن عدد من الفرضيات ونقاط التشابه والالتقاء بين اللغات في ما يسمى عنده « بشموليات اللسان » في الأصوات ومحدوديتها وإمكان إيجاد عدد غير محدود من الجمل منها ، وفي المباني الصرفية الفئوية : اسم أو فعل أو حرف أو مصدر أو ظرف أو صفة أو ... الخ فتقوم قواعد النحو التوليدي بوصف مكونات الجمل وصفا تصنيفيا صرفيا ( اسم ، فعل ، ... مفرد ، مذكر ، مؤنث ... الخ ) ثم توظيف ذلك للوصول إلى حلّ ما فيها من لبس ، أو لإزالة اللبس القائم فيها من تماثل بعض العبارات في مبانيها واختلافها في المعنى .

أما قواعد النحو التحويلي ، فإنها تهتم بالعبارة محوّلة إلى ميدان حسّي منطوق أو مكتوب ، مقاسة على قوانين اللغة التي تنطق العبارة بها ، فيراعي فيها المتكلم ما يجب أن يراعيه ليُحكم على عبارته بالصحة النحوية . ومن هنا تبرز عنده فكرة الجمل التي يمكن أن تكون صحيحة نحواً ومغلوطة دلالة ، إذ لا تطابق بين البنيتين العميقة والسطحية ، والمثل الذي يضربه لذلك هو : الوردة الخضراء تنام غاضبة[٢٠] .

تعمل الكفاية مع البنية العميقة مع قواعد النحو التوليدي في خط يوازي عمل الأداء مع البنية السّطحية مع قواعد النحو التحويلي تمكن المتكلم من إيجاد عدد محدود من الفونيمات والمورفيمات .

٨ ـ وأخيراً يعتمد تشومسكي فكرة الحدس[٢١] للوصول إلى المعنى الدلالي ،وربما كانت هذه النقطة في نظريته من نقاط الضعف التي كانت بتأثير من مدرسة سابير الذهنية ، ومن أبرز ما يمكن أن يؤخذ على نظرية تشومسكي هو عدم إحكام الربط

بين البنية العميقة والبنية السطحية ، فالبنية العميقة عنده ؛ تكون في الذهن فكرة مجردة تبرز في جملة أو في جمل منطوقة لتكون تجسيداً لها ، بقطع النظر عن الكيفية التي تظهر عليها هذه الفكرة من التقديم والتأخير ، أو التوسيع أو الحذف الخ ، فمهمة الجملة المنطوقة عنده ؛ إبراز الفكرة الذهنية الكامنة[٢٢] . وكذلك الحدس ، فإنه يمثل نقطة ضبابية في نظرية تشومسكي ، وهي ، كما ذكرنا ، تتصل بسبب بفكرة الحافز الذهني عند سابير ، فليس من سبيل للوصول إليه[٢٣] ، ولهذا فقد صرف بلومفيلد ـ صاحب المدرسة الديناميكية السلوكية[٢٤] ـ النظر عن البحث فيه لعسر الوصول إليه وليس لعدم أهميته أو لضعف دوره في المنظومة اللغوية .

قبل عرض إمكان الإفادة من هذه المدارس في النحو العربي ، نجد أنّ علينا أن نقول بأنّ إنتاج العقل البشري ليس حكراً على فئة دون فئة ، فليس هناك منتج ومستهلك ، بل ربّما كان في الإحساس بضرورة معاداة كلّ حديث جديد في أيامنا هذه ما يُبعد عنّا ، بل ما يبعدنا عن أن ندفع عجلة الدرس اللغوي عندنا لتسير بحدّ التسارع الذي كانت عليه عندما أفاد منه الغربيون ولم يجد أحدٌ منهم ما يعيب أو يضير في الاطلاع على كتاب سيبويه أو معجم الخليل أو كتاب الإنصاف أو غيرها .

ونجد لزاماً علينا أن نذكر بإيجاز سريع بأن النظرية النحوية التي قامت عليها كتب النحو العربي منذ سيبويه إلى يومنا هذا ، هي نظرية العامل النحوي فَقَسَم النحاة في ضوئه الكلام إلى مبنيات ومعربات ، ثم قَسّموا المعربات إلى مرفوعات ومنصوبات ومجرورات ومجزومات وتوابع ، واقتضى البحث في المبنيات البحثَ في الإعراب المحلي ، فوضع النحاة القواعد لكل باب من الأبواب الفروع في كلّ من هذه الأطر الكبرى ، استنادا إلى عدد من الشواهد ، وما خرج على هذه القواعد ، فقد حكم عليه بالشذوذ حتى لو كان هذا الشاذ كثيرا في لغة العرب ، أو كما يقول أبو علي الفارسي : هو كثير في كلامهم ولكنه يحفظ ولا يقاس عليه ،[٢٥] ومن هنا نشأ ما يمكن أن يسمى بقسرية اللغة النحوية ، ونشأ كذلك ما يسمى بمسائل الخلاف في وجهات نظر العلماء في كلّ من البصرة والكوفة . ولا أرى أننا بحاجة في هذا المقام لضرب أمثلة ، ويكفي الاطلاع على ما جاء في كتاب الإنصاف للأنباري ، لنرى أن من النحويين من كان يخرّج ظاهرة لغوية معينة ، يخرّجها غيرُه تخريجا مناقضا تماما ، كاسمية نعم وبئس أو فعليتهما[٢٦] وكأصل الاشتقاق[٢٧] ، وكجملة الحال وارتباطها

**بقد[٢٨] مثلا ، فنشأ ما يسمى مجازا نحو المدرسة البصرية ونحو المدرسة الكوفية ، فوجدت كلُّ مدرسة مَنْ يتعصب لها وللأخذ بآرائها إلى يومنا هذا . ولكنّ حظ البصرة كان وافراً ، فأخذت به الأجيال ، حتى جاء جيل لا يعرف عن منهج الكوفة شيئا ، ويعادي كلّ ما يخالف ما يعرف معاداة صارخة بحجة أنه يعادي كلّ حديث لأنه حديث ، أو قل لحداثته ، حتى لو كانت هذه الحداثة عائدة إلى الكسائيّ أو الفراء أو ثعلب .**

نرى أن النحاة القدماء ـ رحمهم الله ـ بحثوا في الحركة الاعرابية بخاصة ، وفي مبنى الكلمة والجملة بعامة ، وأجادوا في ذلك إجادة ليس من اليسير لغيرهم أن يصل إلى ما يصل إليه دون اعتماد على ثمار جهودهم ، ولا أظن كذلك أنّ أيّة محاولة لا تعتمد على ما جاء عنهم ، يمكن أن تكون ناضجة تصلح للأخذ بها ، وستكون ـ في ما نرى ـ مبتورة عن خط البناء العلمي الذي يعتمد فيه اللاحق على ما وصل إليه السابق ، مبتورة تماماً كمحاولة الوقوف بأيّ من العلوم ـ ومنها النحو وعلوم اللغة ـ عند القديم بحجة المحافظة على كماله وقدسيته أو عند الحديث بحجة أطراح القديم لعدم مواءمته مجريات العصر .

نرى أن نحاة العربية قد انصرفوا إلى البحث في المبنى وتخريج ما يتعلق به ، عن المعنى ـ إلاّ ما اتفق منه مع المبنى ـ وانصرف البلاغيون إلى الخط الموازي تماما ، إلى أن جاء أحد علماء السّلف الصالح ـ عبد القاهر الجرجاني ـ فضمّ المبنى إلى المعنى في ما يسمى بالنظم ، وما النظم إلا أن تضع كلماتك الوضع الذي يرتضيه علم النحو ،[٢٩] فخرج عنده علم متوازن يفخر كلّ منا بأنه ( الجرجاني ) قد استطاع أن يمسّ ـ على الأقل ـ ما ينادي به أصحاب المدارس الغربية الحديثة في الألسنية وفي النقد الأدبي .[٣٠]

سنعمل في ما تبقى من هذه الدراسة على وضع تصور نربط فيه بين المبنى والمعنى ، والشكل والمضمون ، نقترح في ضوئه تصنيفا يساعدنا في دراسة النحو العربي من غير إخلال بالحركة الاعرابية ، فهي عندنا جزء أساس من فونيمات المبنى ذات الوظيفة الرئيسة للوصول إلى المعنى ، بغيرها تنهار جمل العربية ، فلا يُتبيّنُ فيها الفاعلُ من المفعول ولا الحال من الصفة .... الخ .

فنعتمد على المنهج الوصفي في وصف الجمل وتحليلها ، ونعتمد في المنهج الوصفي

على النظر إلى المكوّنات الرئيسة في الجملة ، على أنّها مبان صرفية تجسّد أبواباً نحوية رئيسة في ذهن المتكلم ، وأما المكونات الفروع في الجملة فإنها تمثل أبوابا نحوية فرعية جاءت لإضافة معنى معين إلى الجملة ، وأن لكلّ من المكونات الرئيسة موقعا أصيلا في الجملة ، يمكن أن يتحول عنه لمعنى في ذهن المتكلم ، تماما كما يكون الوصول إلى الغرض الذي يريده المتكلم عن طريق أحد العناصر الرئيسة في الجملة ، والتغير في تنغيمها أو عن طريق الحركة الاعرابية .(٣١)

ويقتضي المنهج الوصفي الذي نتّبع ، أن ننظر إلى الجملة المنطوقة على أنّها المادة المحسوسة أو المجسِّدة لفكرة في الذهن ، ولمّا لم يكن من اليسير وصف الفكرة في الذهن ، فإننا نرى أن نصفها من الجملة المنطوقة ، بوصف ما يجري في الدّوال للتعبير عمّا يراد أن تكون عليه المدلولات . والدّوال والمدلولات تكون في جملةٍ أصلٍ وأخرى فرعٍ ، وقد تكون الجملة الأصل جملة فرعية في النموذج اللغوي المراد تحليله ، ولنصل إلى دقة في وصف المعنى الدلالي ، نرى أن الجملة لها بنية رئيسة نسميها ( الجملة التوليدية ) ذات البعد الدلالي الأول ( القريب ) لها معناها ولها أطرها ، فإذا ما جرى عليها تغير ، ويكون التغيير بأحد عناصر التحويل ، ( وسنتحدث عنها بعد قليل ) ، أو بأكثر من عنصر ، وكلّ تحويل لابد أن يكون له دور في المعنى ، فإن كانت الجملة التوليدية ترتبط بالبنيةِ السطحية أو بالبُعْد الدلالي الأول ، وتخضع لقواعد الأطر الرئيسة في البناء الجملي ، فإنّ الجملة بعد أن يدخلها عنصر من عناصر التحويل ، تصبح جملة تحويلية وترتبط بالمعنى الدلالي الثاني الذي يود المتكلم أن يصرف بناء الجملة له . وتخضع الجملة حينئذ لقواعد التحويل ، وقواعد التحويل هذه يبرز فيها بدرجة رئيسة وصف الحركة الإعرابية ذات المعنى ، والأخرى ذات الاقتضاء طبقا للقياس اللغوي على ما جاء عن العرب ، ولا مجال فيها لحركة المحلّ أو التقدير .

فالجملة ، إذاً ، هي الحدّ الأدنى من الكلمات التي تحمل معنى يحسن السكوت عليه ، وبدلا من تفصيل القول في اختلافات النحاة في تقسيم الجملة إلى اسمية وفعلية ، وفي اختلافهم في الفرق بين الجملة والقول والكلام ، نرى أنّ الجملة التي ينطبق عليها التعريف السابق هي جملة توليدية ، ونقصد بالتوليدية تلك التي تتكوّن من عدد محدد من الكلمات التي جاءت كلماتها تمثل الأبواب النحوية الرئيسة فيها ، بغير نقص أو زيادة ، وإن كانت تحتملهما . وتخضع هذه الجملة لقواعد أيّ من الأطر الرئيسة التالية : وهي التي نسميها قواعد النحو التوليدي :

١ ـ فعل لازم + فاعل
٢ ـ فعل متعد + فاعل + مفعول به ١ ، ٢ ، ٣ .
٣ ـ فعل + مفعول به ضمير + فاعل .
٤ ـ مسند إليه معرفة + مسند نكرة .
٥ ـ مسند شبه جملة + مسند إليه نكرة .

فهذه الأطر هي أطر الجملة التوليدية ، وفيها قواعد النحو التوليدي ، وغاية الجملة التي تنطبق على أيّ منها ، أو بُعدُها الدلالي ، نقلُ الخبر من المتكلم إلى السامع أو المخاطب ليس غير ، دون توكيد ، أو نفي ، أو استفهام أو شرط ، أو نداء ، أو تحذير ، أو فخر أو تعظيم .... الخ . فإن قَصَدَ المتكلّم أن ينقل لسامعه أيّاً من هذه المعاني أو سواها ، فإنّ عليه أن يحوّل الجملة من هذا الإطار إلى إطار آخر مستخدما عنصراً أو أكثر من العناصر التالية : الترتيب ، الزيادة ، الحذف ، التنغيم ، الحركة الإعرابية . وهي التي نسميها قواعد النحو التحويلي وكلّ تحويل لابد أن يكون لغرض في المعنى أو أنّه يتصل به بسبب .

تأخذ الجملة اسمها الثابت في الإسمية أو الفعلية في حال وجودها في مرحلة الجملة التوليدية ، « والعبرة بصدر الأصل » ، فالجمل : علي مجتهد
في البيت رجل
جمل اسمية ، ولكنها توليدية ، ومعناها الاخبار المحايد ، أمّا الجمل :
حضر علي
قرأ الطالب الكتاب
أكرمني النادي الأدبي

فجملة توليدية فعلية ، توليدية لأنها مكوّنة من حدّها الأدنى في إطار من الأطر السابقة فعلية لأن صدرها فعل . وأما الجمل :
كان علي مجتهدا
أن عليا مجتهد
ليس علي مجتهدا / بمجتهد

فجمل اسمية من حيث صدر الأصل ، تحويلية ، جاءت فيها عناصر زيادة ، وكلّ زيادة في المبنى تقابلها زيادة في المعنى ، فجاءت الزيادة في الأولى للإشارة إلى الزمن

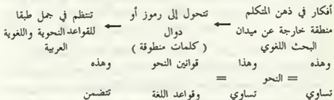
الماضي ، وفي الثانية للتوكيد ، وفي الثالثة للنفي وتوكيد الخبر المنفي . وهذا ما يجب أن يفهمه السامع ، قصده المتكلم أم خرج عليه لجهله بأساليب العربية .

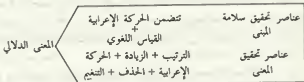
فالكلمات تخرج في تركيب جملي ، معبِّرة عمّا في ذهن المتكلم ، ومطابقة له ، ( أو هكذا يفترض أن تكون ) ، يقول الجرجاني : « لا يتصور أن تعرف للفظ موضعا من غير أن تعرف معناه ، ولا أن تتوخى في الألفاظ من حيث هي ألفاظ ترتيبا ونظما ، وإنّك تتوخى الترتيب في المعاني ، وتُعمل الفكرَ هناك »(٣٢) .

وليكون تحليل الجملة تحليلا تاما ، يوصل إلى المعنى الدلالي ، لابد من أن تتحدمستويات التحليل اللغوي اتحاداً تاما ، في نظرة تحليلة متكاملة . فالمستوى الأول التحليل الصوتي Phonetics and Phonology تحدد فيه العناصر الصوتية الفونيمات المكوّنة في الجملة ، وفونيمات الصوامت والصوائت ، ليتم في المستوى الثاني تحديد المبنى الصرفي بما فيه لكسيمات ( وحدات معجمية ) ومورفيمات ومونيمات وحدات اشتقاقية ، فيتحدد بذلك القسم الصرفي الذي ينتمي له المبنى : اسم ، فعل ، اسم فاعل ، اسم مفعول ... ، مفرد ، مثنى ، جمع ، سالم أو تكسير ، مؤنث ، مذكر ... الخ ثم يأتي دور المستوى التركيبي ، وفيه يتمّ تحديد حاجة الكلمة الأولى إلى ما يليها من كلمات انطلاقاً من أنّ بؤرة الجملة الفعلية ( الفعل ) ، وبؤرة الجملة الإسمية ( المبتدأ ) . وبناء على ذلك فإنّ الحركة الإعرابية تحدَّد على كل كلمة في الجملة من واقع الباب النحوي الذي هي ممثّل صرفي له »(٣٣) فهي تجسيد محسوس لقالب ذهني أو لباب ذهني مجرّد . واعتمادا على هذا فإننا نرى أن نجمع أطر التراكيب الجملية المحوّلة في عدد من الأبواب الكبرى ( أبواب المعنى ) على أساس المعنى وليس على أساس العمل والعامل ، فتخرج بذلك جمل النفي في باب ، وجمل التوكيد في باب ، وجمل الشرط في باب ، وجمل الاستفهام في باب ... وهكذا في بقية الأبواب . وبذا فإننا لا نجد بابا من أبواب المعنى موزعا في عدد كبير من الأبواب ، فنجد في كتب النحو مثلا ، ليس التي تفيد النفي في باب كان ومازال وظل وأمسى وصار ، ونجد ما ، في باب ما يلحق بليس ، ونجد لا ، تارة في ما يلحق بأنّ ، وأخرى بما يلحق بليس ، ولن ، في باب ناصب المضارع مع أن وإذن وكي .... وغيرها : وما النافية في منطقة مهملة لأنها لا تترك أثراً اعرابياً على ما يليها .

فنستطيع بذلك أن نفيد من التراث النحوي ومن التراث البلاغي ومن نتائج جهود

علماء الألسنية الحديثة ، في ضم المضمون إلى الشكل ، والمبنى إلى المعنى ، ليسيرا في خطين متوازيين يوصلان إلى نتيجة واحدة ، كما نوضحه في الرسم التالي ، وبذا فإننا نمكّن كلا من الطالب والمعلم من أن يحذو حذو العرب في كلامهم ، وأن يفهم السامع ما تنطوي عليه أساليبهم وتعبير لسانهم :




*فنصرف بذلك النحو عن التعريف الذي يرتضيه له جلّ النحاة بأنه العلم الذي يبحث في حركات أواخر الكلمات ، إلى البحث في المعنى المحدّد للجملة من خلال المباني الصرفية فيها .*

*فالبحث النحوي في ضوء التعريف السابق يحصر الحديث عن المرحلة الأولى من مراحل تكوين الجملة ، أي عن المرحلة الذهنية ، ويصرفه عنها ، لأنّ الإنسان ـ في ما نرى ـ يفكر بمجموعة من الأبواب النحوية يستوي في ذلك العربي وغيره ، الأمي والمتعلم ، ثم يجسّد هذه الأبواب التي هي ذهنية مجردة بمبان صرفية تؤدي ثلاثة أدوار : تمثيل صرفي للباب النحوي : تمثيل معجمي لمعنى الوضع ، تمثيل سياقي . تلتحم هذه الأدوار الثلاثة ، فتأخذ الحركة الإعرابية دور المنسّق بين التمثيل الصرفي للباب النحوي ، والتمثيل السياقي ؛ لتوصل إلى المعنى الدلالي للباب اللغوي الذي تنتمي إليه الجملة . وبذا لا نقف بالنحو عند مرحلة التفكير الذهني المجرد الذي انقلب إلى رياضة* عقلية ليس بالضرورة أن يكون من يعرفها قادراً على الكتابة الصحيحة فضلاً على *النطق الصحيح .*

قلنا: لا نقف بالنحو عند مرحلة التفكير الذهني، ونضيف هنا فنقول: ونمرّ بهذه المرحلة في وسط التمثيل الصرفي بالتمثيل السياقي.

● ● ●

## ● الهوامش ●

(١) وانظر، خليل عمايرة: في التحليل اللغوي ص ٨٧ وما بعدها.
(٢) وانظر، سيبويه: الكتاب جـ ١ / ١٢.
(٣) وانظر: خليل عمايرة: في نحو اللغة وتراكيبها ص ١٧٥ وما بعدها.
(٤) وانظر لمزيد من التفصيل: دي سوسير ص ٣١ ـ ٣٥.
(٥) السابق ص ٨٧، ٨٩.
(٦) وانظر عبد القاهر الجرجاني دلائل الإعجاز ـ ص ٤٠.
(٧) السابق.
(٨) دي سوسير: ص ١٥٠ ـ ١٥٥.
(٩) السابق ص ١٢٣.
(١٠) Harris, Z.S., Methods in structural linguistics, Chicago Univ. Press, 1951.
Papers in structural and tranformational linguistics, 1970.
(١١) السابق.
(١٢) السابق.
(١٣) وانظر: خليل عمايرة: في التحليل اللغوي، وفيه فصل كامل عن نظرية العامل بين مؤيديه ومعارضيه ص ٥١ ـ ١٠٣.
(١٤) وانظر Martinet, A., A Functional view of language, Oxford, 1962.
(١٥) السابق.
(١٦) سيبويه، الكتاب ٢٣/١ ـ ٢٤، ٣٦/٢، ٧٨، ١٢٦.
السكاكي: مفتاح العلوم: ٧٦ ـ ١٠٨.
القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة ١٣ ـ ٦١.
خليل عمايرة: في نحو اللغة وتراكيبها ص ٩٩.
(١٧) وهناك عالم معاصر يقوم بتدريس علم اللغة في جامعة هارفرد S. Kuno يحاول أن يوجه أفكار المدرسة الوظيفية إلى وظيفة جديدة يراها تمثل رأس مدرسة جديدة تقف في وجه المدرسة التوليدية التحويلية.
(١٨) وكانت هناك مدارس أخر في أوروبا وأمريكا أبرزها مدرسة فيرث في بريطانيا ومدرستا سابير وبلومفيلد في أمريكا ـ ولا أرى المقام يتسع للحديث عن أيّ منها.
(١٩) وانظر لمزيد من التفصيل Chomsky, N.,- Syntactic structures Mouton, 1957.
– Aspects of the theory of syntax, Cambridge, Mass 1965.
– Studies on semantics in generative grammar, Mouton, 1972.
(٢٠) وانظر لمزيد من التفصيل Chomsky, N. syntactic structure, P.P. 34-49, 92-106.
(٢١) ولمزيد من التفصيل انظر Chomsky, N. Aspects of the theory of syntax PP. 128-148.

(٢٢) خليل عمايرة ، في نحو اللغة وتراكيبها ، ص ٨٨ ـ ١٧٨ .
(٢٣) وانظر لمزيد من التفصيل Spair, E, Language, an introduction to the study of speech, PP. 57-82.
(٢٤) وانظر لمزيد من التفصيل Bloomfield, L., Language, PP. 158-170, 425-476.
(٢٥) أبو علي الفارسي : التكملة
(٢٦) الأنباري ، الإنصاف في مسائل الخلاف ، مسألة ١٤ .
(٢٧) السابق ، مسألة ١ ، ٢٨ .
(٢٨) السابق ، مسألة ٣٢ .
(٢٩) عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ( خفاجي ) ١١٧ .
(٣٠) وانظر : خليل عمايرة : البنية التحتية بين تشومسكي وعبد القاهر الجرجاني ، الأقلام عدد ٩ .
(٣١) وانظر : خليل عمايرة : في نحو اللغة وتراكيبها ص ٨٨ ـ ١٧٨ .
(٣٢) عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ص ٤٠ .
(٣٣) خليل عمايرة : في التحليل اللغوي ص ٤٩ ، ٨٧ ـ ١٠١ .

## ● قائمة المراجع العربية ●


(١) الأنباري ، أبو البركات : الإنصاف في مسائل الخلاف ، ت محمد محيي الدين عبد الحميد القاهرة ١٩٦١م .
(٢) الجرجاني ، عبد القاهر ، دلائل الإعجاز ، دار المعرفة ـ بيروت ١٩٧٨ ، و ( خفاجي ) .
(٣) دي سوسير ، فردينان ، محاضرات في الألسنية العامة ، ترجمة يوسف غازي ، ومجيد النصر دار نعمان للثقافة ، ١٩٨٤م .
(٤) السكاكي ، يوسف بن أبي بكر ، مفتاح العلوم ، دار الكتب العلمية ـ بيروت .
(٥) سيبويه : الكتاب ، ت عبد السلام هارون ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٦٦ ، ١٩٧٥م .
(٦) السيوطي ، جلال الدين همع الهوامع ، تحقيق عبد العال مكرم ، دار البحوث العلمية الكويت ١٩٧٥م .
(٧) خليل عمايرة : في نحو اللغة وتراكيبها ، منهج وتطبيق ، عالم المعرفة ـ جدة ـ ١٩٨٤م
ـ في التحليل اللغوي ، منهج وصفي تحليلي ، مكتبة المنار ، الأردن ١٩٨٧م
ـ البنية التحتية بين تشومسكي وعبد القاهر الجرجاني الأقلام ( العراقية ) عدد ٩ .
(٨) الفارسي ، أبو علي ، كتاب التكملة ، ت كاظم بحر المرجان ، ١٩٨١ ، بغداد .
(٩) القزويني : الخطيب ، الإيضاح في علوم البلاغة ، دار الجيل ـ بيروت .


## ● المراجع الأجنبية ●


*(1) Bloomfield, L., Language, New York 1933, 1976.*
*(2) Chomsky, N., Syntactic structure, Mouton, 1957.*
*– Aspects of the theory of syntax, Canbridge, Mass 1976.*
*– Studies on semantics in generative grammar, Mouton, 1972.*
*(3) Harris, Z. S., Methods in structural Linguistics, Chicago Univ, Press, 1951.*
*Papers in structural and transformational Linguistics, 1970.*
*(4) Mertinet, A., A functional view of Language, Oxford, 1962.*
*(5) Sapir, E, Language, Language, an introduction to the study of speech, New York 1921, 1970.*
*(6) Ullmann, S., Semantics, an introduction to the science of meaning, Oxford, 1962.*